محمود الريماوي

محمد الصغير في الدائرة

ذات فجاة ، رفع محمد الصغير راسه عن كتاب الابجدية ، وتطلع الى وجه ابيه الذي كان ينحني على طعام الغداء ، ولما لم يبادله الاب النظرات ، انكفأ الابن من جديد على حروف الابجدية وعلى الصور التي لا تشبه الحروف ، وحيدا في زاويته ، بانتظار فرصة مواتية في شجاعة سانحة ، تجعله يقترب من الاب الكبير ، ويبوح .

وعندما رفع الاب جذعه وبدا على وشك الانتهاء من طعامه دون ان يبدو عليه الاكتفاء او بقاء الرغبة .. حانت من محمد الصغير التفاتة خاطفة الى ابيه ، وتبسم ابتسامة بشر وامل ، فبادله ابوه بابتسامة سماح ورضا .. عند ذلك تشجع محمد ، وقال بتلك اللهجة الرشيقة، لهجة من يستانف حديثا شائقا ، كان قد انقطع سابقا :

ـ ابي ، اريد ان اسالك سؤالا .

فقال الاب على الفور :

ـ طبعا ، انك لا تعرف ابدا ان تقرا لوحدك . لماذا انت هكذا ؟

فتبسم محمد بخبثه الصغير ، وقد واتته الشجاعة الآن .

ـ بل اعرفه ، لكني اريد ان اسالك سؤالا .

ـ اسال .

ـ ابي ، هل انحبست انت ؟

ـ انا ؟

ـ نعم انت .

كانت الام قادمة من المطبخ . ربما سكت صوت وابور الكاز وتناهى اليها السؤال ، فاسرعت بالمجيء وهي تتنهد ، قائلة بلهجة التنديد :

ـ قال الله ولا فالك . ما اكثر كلامك !

فاحنى محمد راسه امام عاصفة يعهدها في أمه ، وغمغم بكلمات خافتة متعثرة ، كانما قالها لنفسه فقط .

اما الاب ، فكان ينظر الى ابنه بدهش وتامل ، وقد استغرقته الخواطر ، وخرج صوته منزلقا :

ـ لماذا تسال ؟

فبدا محمد الصغير ، وقد فقد شجاعته السابقة ، وان احتفظ بفضوله الظاهر . رفع راسه وحدق في وجه ابيه :

ـ ولا لشيء يا ابي . اريد ان اعرف فقط .

كان الاب يتوقع من ابنه اجابة مباشرة و « صادقة » . ولما لم يحدث ذلك فقد استيقظ انتباهه مشوبا بحذر طفيف ، وشعر ان ابنه هذا قد كبر من الامس الى اليوم ، على نحو مفاجيء ، فبدا يخاف عليه ويعتز به .

ـ ولماذا تريد ان تعرف ، لم تسالني من قبل هذه الاسئلة ؟

ـ لان صاحبي في المدرسة ، ابوه محبوس ، يا ابي .

ـ ما اسم أبيه ؟

ـ اسم صاحبي خالد ابو العينين .. خالد احمد ابو العينين.

ـ ابوه يعني احمد ابو العينين .. هذا الرجل لا اعرفه يا ابني ، لا اعرفه .

فسكت محمد سكوت الخيبة . انه لم يعرف شيئا ، وكان قد دخل مع ابيه في دائرة الاسئلة والاجوبة ، وهو يريد لهذه الدائرة ان تتسع ، وتلبي كل خواطره الطفلية وان تهدىء من ضميره الصغير .

ـ انه يسكن في بلدنا يا ابي .

ـ اهل بلدنا كثيرون يا ابني ، وانا لا اعرفهم جميعهم . هل تعرف انت كل طلاب مدرستك ؟

ـ لا ، لا اعرفهم كلهم . اعرف طلاب صفي فقط . لكن انتم الرجال تعرفون بعضكم يا ابي .

ـ هل قال لك صاحبك شيئا ؟ قل لي ولا تهتم .

ـ لم يقل لي شيئا . قال ان اليهود جاؤوا الى بيتهم في نصف الليل ، واخذوا اباه معهم وهناك حبسوه .

ـ اين بيتهم ؟

ـ لم اذهب مع صاحبي الى بيتهم . انه من طريق ثانية يا ابي .

ـ متى حدث هذا ؟

ـ أول أمس . قال انهم فتشوا البيت واخذوا صندوقا كان عندهم . امس غاب صاحبي عن المدرسة ، واليوم جاء وقال لي . انه يا أبي احسن طالب في الصف .

ـ قلت انهم اخذوا صندوقا من عندهم ؟

ـ نعم صندوق . ولا يعرف صاحبي ماذا في الصندوق .

ـ طيب اقرأ في كتابك الآن ، ولا تفكر بهذه الاشياء .

ـ انا قرات الدرس مرتين يا أبي ، واريد ان اسالك لماذا حبسوه ؟

ـ قلت لك يا محمد انا لا اعرف هذا الانسان ، فكيف ساعرف

لماذا حبسوه ؟

ـ يعني حبسوه بدون سبب ؟

ـ لا ادري ، بسبب او بدون سبب . ولا اريدك ان تكثر كلامك في المدرسة او في الحارة .

لقد تعاظم شعور الاب ان ابنه الصغير قد بدا يكبر ، على صورة تدعو للخشية عليه والاعتزاز به . وقد آثر ان يقصي السؤال عنه ، لاسباب تخصه ، وربما لاول مرة ينهره عن ثقة ورضا ، لا عن غضب وتانيب .

اما الام فانها في الزاوية الاخرى ترتق الثياب بداب متواصل ، وقد راق لها ان تصور الامر ، على انه مجرد تعقيب على حكاية رواها الاب لمحمد ، بينما محمد يحاول الآن كعادته ولانه صغير ، ان يفهم وبالحاح امورا هي غير موجودة او حقيقية . هكذا بدت في لامبالاتها ، وهي محنية الراس على الثوب ، تتمتم لنفسها بكلام نسائي او كلام منزلي ، او تترحم على احد موتاها ، او تلهج بتلك الادعية الخافتة الرتيبة لله جل جلاله .

بينما الابن قد انحسر فضوله وانطوى على نفسه ، مثل قط أنيس ماكر لم يحظ بكوب حليبه .

ربما لا يليق هذا الوصف به ، فانتصار العقل البادي في عينيه ، لا يقل عن انتصار البراءة في حناياه . هذا ما كان يضفي عليه رجولة مبكرة ، مقبوضة ومحتقنة .

كان الاب قد خرج في تلك الاثناء ، ولم يعتم محمد بعد ان تاكد من ابتعاد ابيه ، ان اندفع الى الحارة ، رغم تمنع الام وتحذيراتها . لكن محمد بعد ان مشى قرب بعض جدران البيوت القريبة ، ما لبث أن رجع بهيئة من اضاع شيئا او بحث عن شيء ولم يجده ، وكانت عليه سيماء الضجر والاسى .

اطبقت الشمس على الغروب ، فقدمت له الام بيضة مقلية ليتعشى بها ، فاكلها على عجل . والقت له بفراشه الصغير ، في الزاوية التي كان يقعي فيها ، لكي يذهب الى نومه ولا يتاخر . وقبل ذلك كان ذهب الى المرحاض حتى لا يتشاجر مع امه وتضربه ، ثم تمدد على الفراش .. ولكن لا لينام .

بل لينتظر الاب .

وقد تاخر الاب في تلك الليلة ، كانما ليظل محمد محروما من الاجوبة على أسئلته ، فانتابه الخوف . لم تكن تلك هي المرة الاولى التي يتاخر فيها عن الرجوع الى البيت ، لكنها كانت المرة الاولى التي يخاف فيها محمد لهذا السبب . وهو في خوفه ، لم يكن يسمع امه التي تراقبه بين وقت وآخر لتحثه على النوم ، حتى يذهب في الصباح نشيطا الى مدرسته ، ولا يتاخر عندما تناديه للاستيقاظ . ولكنه كان يرى ذلك الرجل ابو العينين طويلا ثابتا مثل ابيه . قويا ممتلئا ، بشارب كثيف ، ويرتدي جاكيت اخضر مثل ابيه . راى ابو العينين وراى بيته . رآه يكمن قريبا من باب البيت لانه يعرف ان الجنود اليهود قادمون الى بيته ، وحين يقتربون يفاجئهم بالرصاص السريع ، ثم يدخل البيت من الباب الخلفي ، وينام . ثم رآه ، راى عيونه واسعة مفتوحة تتقد بالغضب مثل عيون الاسد ، وقال انه لذلك اسمه ابو العينين ، رآه وقد غافل حارسه في السجن وقتله بصمت ، وخرج راكضا دون ان يلحظه احد ، غير انه لم يرجع الى بيته هذه المرة .

فتح الاب باب البيت ودخل ، وسال امراته بعد ان القى نظرة الى الابن :

ـ هل نام محمد ؟

فقالت وهي تنهض من نومها :

ـ نام من زمان ..

فجاء صوت «محمد من تحت الغطاء :

ـ مساء الخير . انا لم انم يا ابي .

ورفع عنه الغطاء . مسح الاب على راس ابنه فنهض محمد والتصق بصدر ابيه ، ورفع الاب ذقن صغيره بتؤدة ولطف وهو يحدق فيه ، وقبله . كانت قبلة كافية ، لان يتحرر الابن من عواطف ابيه المانعة ، ويستيقظ ، ومعه فضول النهار الباقي والطاغي :

ـ هل تريد ان تنام يا ابي ؟

ـ الواحد يجب ان ينام الآن يا حبيبي ، الدنيا نصف ليل الآن .

ـ لست نعسانا .

ـ طيب ماذا تريد ان تفعل .. هل تريد ان تسال الان ؟

ـ نعم يا ابي ، لانك لم تجاوبني ، لماذا حبسوا ابو العينين ؟

ـ انت صاير ولد صعب . تغيرت . طيب خلي صوتك واطي ، الناس نايمة . حبسوا الرجل لانهم اعداء يا ابني . الاعداء يفعلون هكذا دائما .

ـ ولماذا يفعلون هكذا ؟

ـ لانهم اعداء ، الا تفهم ؟

وهز محمد راسه امارة على الفهم والايضاح ، وتهيا للاب ان «محمد سوف ينسى وينام . غير ان محمد لم ينس ذلك السؤال الذي كان يهتف في راسه وضميره ، دون ان يتمكن من قبل ، ان يقوله .

ـ انا اقصد يا ابي ، اقصد لماذا حبسوه هو ولم يحبسوا غيره ؟

عندها وجد الاب نفسه يسقط ويدخل في الدائرة من جديد .

وقبل ان يعثر على جواب كاف لمحمد الصغير ، كان باب البيت قد قرع بعنف ، فانفلت الاب الى الغرفة الثانية ، ودوى اهتزاز الباب وسقوطه بصوت انفجاري حاد ، وتدفق جنود احاطوا بالرجل (محمد اطلق صرخة واحدة وسكت) وآخرون اتجهوا الى المطبخ ، وخرجوا من امام محمد ، يحملون صندوقا ثقيلا (فتح محمد عينيه عليه ورأى جانبا من قطعة سلاح طويلة على واجهة الصندوق المخلوع ، وكانت أول مرة يرى قطعة سلاح بدون شخص يحملها) ثم رأى المجموعة الاولى من الجنود وهي تنزع الاب من الام وتحيط به وتقوده وهي توجه فوهات اسلحتها الى ظهره .

وان هي غير لحظات ، حتى فرغ البيت من الاب والاجوبة المرتجاة . سوى جواب واحد كان يخفق في صدر محمد الصغير ، جواب غامض قوي ينتشر في البيت مثل طيف رجل مسلح مجهول ، ومحمد لا يعرف كيف يلتقطه .

والتصقت الام بابنها دون ان ينقطع نشيجها ودعائها البكائي ، اما محمد فلم يلبث ان كف عن البكاء ، عندما اخذت تنبت في راسه واعصابه الحزينة ، أسئلة صغيرة تعددت وتكاثرت حتى اصبحت دائرة تحيط به وتطبق عليه ، فجعل يترقب بصبر وحنق طلوع النهار ، ليسرع الى صاحبه خالد ، ويكونا معا .

الكويت